الباب الاول

الفصل الاول

الشعر — نشأته

اختلف الناس فى تعريف الشعر تعريفا جامعا بعبارة مستقيمة تجمع أطرافه وتلم بمعانيه وأغراضه ، فبعضهم يقول إنه الكلام الموزون المقفى ، وكل ما كان كذلك فهو شعر ، وآخرون يزعمون أن كل كلام صدر عن وجدان صادق وشعور صحيح ، وكل رمز أو صورة وافقت تعبيرا صحيحا عن خالجة من خوالج النفس أو ظاهرة من ظواهر الطبيعة الحية فهو شعر . والناس فيما بين هؤلاء واولئك مختلفون فى الاقتناع بأحد الرأيين ؛ لا يكادون يتفقون على أيهما اصح تعبيرا واجدر بالدلالة على مسماه

والواقع ان الشعر على مايعرفه العرب هو الكلام الموزون المقفى . وعلى ذلك كان اتفاقهم الى أجل قريب ، وانما نشأ هذا الخلاف فى التعبير ، بعد أن استحدث المتأخرون فنونا تتفق والشعر فى اغراضه ومعانيه . وقيل بعد ذلك إنها من فنون

الملهمين ذوى النفوس الشاعرة فهى اذن شعر .

أما نشأته فليس يستطيع أحد أن يحدد تاريخها تحديدا مضبوطا يعتمد عليه ؛ فى بيان كيفية نشوئه وأول من قاله ، وانما يظن بعضهم انه اتفقت لحاد او متغن سجعتان متوازنتان وقعا ، فأعجبه ذلك ومضى فيه ، وسمعه غيره فقلده ، وأوغل غيرهم فى ذلك حتى وقعت لهم المقطعات والاراجيز الصغيرة ، ثم لما تمت ملكة الشعر عندهم واتسعت اغراض القول لديهم نوعوا الاوزان واطالوا القوافى

ولا شك أن كثيرا من الشعر الاول الذى قيل فى العصر القديمة ، قد ضاع فلم يصل الينا شىء منه ، لانعدام وسائل التدوين والاثبات ؛ فلم يستطع نقلة الاخبار ورواة اللغة تدوين شىء منه الا بعض ما قيل فى أواخر القرن الخامس والسادس بعد الميلاد

واقدم ما استطاع الرواة والنقلة إثباته مما قيل فى ذلك العهد إنما نسبوه لجماعة منهم العنبر بن عمرو بن تميم ودويد بن زيد بن نهد ، وأعصر بن سعد بن قيس عيلان ، وزهير بن جناب الكلبي والافوه الاودى وابو دؤاد الايادى وكل ماروى لهؤلاء مقطعات صغيرة لاتسمى قصيدا ، حيث لم ترو المطولات الا لعدى بن

ربيعه اخي كليب وقد سمي مهلهلا لانه هلهل القصيد وطوله وهو اول من رويت له قصيدة تبلغ ثلاثين بيتا وتابعه الشعراء على ذلك

ومما لاشك فيه أن الشعر لم يبلغ مبلغه الذى رأيناه في شعر امرىء القيس وعلقمة الفحل وعبيد وغيرهم بل لا بد ان يكون قد تقلب في شتى المراحل وتطور حتى بلغ الصورة التي نقرأها لهؤلاء وذلك في غني عن الاستدلال عليه وتلمس البراهين على صحته لانتفاء الكمال طفرة واحدة ولكننا لا نرى بأسا من ايراد شيء من الادلة عليه كقول امرىء القيس :

عوجوا على الطلل المحيل لاننا

نبكي الديار كما بكى ابن خزام

ولا جدال في أن ابن خزام هذا كان شاعرا يبكي الديار وان لم يصلنا من شعره وبكائه شيء لقدم عهده وانعدام وسائل الاثبات كما قلنا ، وهذا عنترة يقول :

هل غادر الشعراء من متردم

ام هل عرفت الدار بعد توهم

وهو هنا يشهد بأن من سبقه من الشعراء لم يترك له شيئا يقال وهذا دليل لا على أن الشعر سابق لعهد هؤلاء فقط بل على أن الشعراء الذين تقدموا هذا العهد كانوا كثيرين ايضا وذلك زهير

يقول :

ماارانا نقول إلا معارا ومعاداً من كلامنا مكرورا

والمعنى أن كثيرا من كلامهم مستعار من معانى غيرهم ومارددوه قبلهم . وفى ذلك القدر كفاية للاستدلال على أن الشعر قيل فى عصر سابق لهذه الطبقة ولا يمكن تحديد نشأته بالضبط

وقد امتاز الشعر فى عصر جاهلية العرب بأن كان سفرا يضم اشتات الحوادث ويجمع شوارد المساجلات ، فهو اثرهم الذى نقرأ فيه تفصيل امورهم ومجمل اخبارهم ، وعلة ذلك انتشار الامية بينهم وحاجتهم للتدوين والاثبات . ولعل فى موسيقى الوزن والقافية وقدر الالفاظ مايجعل الشعر أعلق بالآذان وأثبت فى الصدور . فوجد لذلك الرواة والحفظة ممن تدهشنا الان كثرة ماحفظوا ونقلوا من شعر قيل فى مناسبات عنوا باثباتها وروايتها حيث لم يكن لهم اذ ذاك من الوسائل مايضمن خلود اخبارهم وتسجيل وقائعهم الا الابيات من الشعر يقولها الرجل منهم مفاخرا غيره بفضل عرف به أو منفرا قومه لعظيمة او مزعجا لهم الى حرب فى سبيل ذمام خفر أو عهد نقض أو غارة عدو مناهض أو اجابة لمستنصر أو غير ذلك مما كان فى المحل الاول عندهم من العناية

والاهتمام بحكم طبعائهم

فكان فيهم المفاخرون بأحسابهم وفضائل أنسابهم وعراقة منابتهم واصالة قبائلهم وبطونهم والمناخرون عن اعراضهم وشمائرهم والمتغزلون والناسبون والوصافون لوهاد الارض وحلك الليل وحمحمة الخيل ورغاء الابل وكثير غير هذا مما كان يقع تحت حسهم ويستجيبون له بفطرتهم البدوية البحتة .

ولم يخل ذلك العصر من وجود بعض الشعراء الذين تكلموا في اللاهوت والاديان وتفردوا بمعتقدات خاصة بهم مضادة لمعتقدات معاصريهم كامية بن ابى الصلت وغيره

ومن عنايتهم بالشعر ان كانت لهم مواسم عامة واسواق موقوته كذى المجنة وعكاظ يتوافون اليها وينصب لهم حكم منهم يقضي بينهم فى الشعر فيتقدم كل قبيلة شاعرها فيتحاكمون ويتناشدون الاشعار فما كان يحدث لقبيلة حادث الا وشاعرها منوط به يبين لهم خيره من شره ونفعه من ضره . فهو الذى يحثهم على الفضائل واتيانها وينهاهم عن مواطن الرذائل وغشيانها وهو الذى يثير كوامن احقادهم ويدفعهم الى شن الغارات فى طلب الثأر والذياد عن العرض والمال وهو الذى يجمع ما تفرق من أمرهم ويصلح ما فسد من حالهم، كما وقع لزهير بن ابى سلمى مع فزارة وذبيان

وكان للشعر عندهم من المنزلة والاحترام شيء كثير الى حد انه كان اذا نبغ في القبيلة شاعر احتفلت بذلك فصنعت الاطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الاعراس، وجاءت القبائل فهنأتها . ولا عجب من ذلك فقد كان الشعر يرفع ويضع وهذا الحارث بن حلزة اليشكري كان أبرص تأنف الملوك مجالسته فأنشد الملك عمرو بن هند قصيدته :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

وبينهما سبعة حجب فما زال يرفعها حجابا حجابا انشدها عجابها بما يسمع حتى لم يبق منها حجاب ثم ادناه وقربه ونادمه

وممن رفعه الشعر وخلد ذكره عرابة الاوسي وذلك أنه بذل للشماخ بن ضرار في سنة شديدة وسق بعير تمرا فقال فيه :

رأيت عرابة الاوسي يسمو الى الخيرات منقطع القرين
أفاد سماحة وافاد مجدا فليس كحامد لحز ضنين
اذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

وذهبت هذه الابيات في الناس وخلدت ذكر عرابة سائر الدهر

ومنهم المحلق واسمه عبد العزى ، وذلك ان ابا بصير ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل احد اعلام الشعر في الجاهلية قدم مكة وتسامع الناس به وكان للمحلق امرأة ذات عقل وله بنات

سبع وقيل عشر فقالت له ان الاعشى قدم وهو رجل مفوه مجدود في الشعر ما مدح أحدا إلا رفعه ولا هجا أحدا الا وضعه وأنت رجل كما علمت خامل الذكر ذو بنات وعندنا لقحة[1] نعيش بها فلو سبقت اليه فدعوته الى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشترى به ما يتعاطاه لرجوت لك حسن العاقبة فسبق اليه المحلق فأنزله ونحر له ووجد المرأة قد خبزت خبزا واخرجت نحيا[2] فيه سمن وجاءت بوطب[3] لبن فلما أكل الاعشى واصحابه وكان في عصابة قيسية قدم اليه الشراب واشتوى له من كبد الناقة وأطعمه من أطايبها فلما جرى فيه الشراب وأخذ منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه وذكر البنات فقال الاعشى : كفيت أمرهن وأصبح بمكاظ ينشد

ارقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي تعشق

ورأى المحلق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدري ماذا يريد الاعشى بقوله الى ان سمع :

فى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقى تفهق

ترى القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل دردق

---

(١) — اللقحة هى الناقة الحلوب (٢) — النحى عند العرب الزق يجعل فيه السمن خاصه (٣) الوطب سقاء اللبن

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فلما أتم القصيدة الا والناس ينسلون الى المحلق يهنئونه والاشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه يخطبون بناته لمكان شعر الاعشى فلم تمس واحدة منهن الا في عصمة رجل افضل من ابيها

وامثلة ذلك في تاريخ الادب كثيرة مشهورة نكتفي منها بما تقدم في الدلالة على أن العرب كانت تقدر الشعر وتحفل به وتضعه في المكان الاول من عنايتها

وكان الغالب على طباع العرب في الجاهلية الانفة من التكسب بالشعر وقلة التعرض لما في ايدي الناس الا فيما لا يزرى بقدر ولا مروءة حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك وقبل الصلة على الشعر وخضع للنعمان بن المنذر فسقطت منزلته ، وقيل انه تكسب به مالا كثيرا حتى كان أكله وشربه في صحاف من الذهب والفضة من عطاء الملوك ؛ اما الاعشى فقد جعل الشعر متجرا يتجر به حتى عند من لا يفهمه مثل ملوك فارس وغيرهم ، وجاء بعد هؤلاء الحطيئة فأكثر من السؤال والالحاف حتى مقت الشعر وتحاماه الاشراف من العرب

واكثر ما كانت العرب تقول الشعر في الجاهلية في الحماسة

والفخر والنسيب والهجاء ولم يكن المديح فاشيا فيهم إلا قليلا مما كان يجرى على لسان الشاعر منهم لغرض من الاغراض غير التكسب به على نحو ما بينا واشتهر في جاهلية العرب جماعة من الشعراء اكثر الناس على أن اجدرهم بالزعامة أمرؤ القيس والنابغة والاعشى وزهير وبعضهم يقدم واحدهم على الآخرين على انه كان هناك من الشعراء كثيرون لا يقلون عن هؤلاء امثال لبيد وطرفه وعنتره وعبيد وأميه بن أبى الصلت ودريد بن الصمة وغيرهم

ودامت حال الشعر كما ذكرنا حتى كانت البعثة المحمدية وارسل النبي ﷺ بشيرا ونذيرا للناس كافة وآمن به قوم وكفر آخرون وانتدب جماعة من الشعراء يناصرون الدعوة وظهر آخرون يناوئونها فدخلت على الشعر الفاظ جديدة دعت اليها اغراض جديدة مما جاء به القرآن من ذكر الجنة والنار والكفر والايمان وغير ذلك وبالجملة فقد نهض الشعر نهضة محسوسة فى ذلك العهد واستلزم الذب عن الدين واهله أن يكثر الهجاء بين المؤمنين والمشركين .

وكثر الشعر فى قريش ولم تكن تعرف به قبل ذلك

الشعر فى الاسلام

تغيرت حال الدولة العربية فى الاسلام و تركز السلطان فى جهة واحدة معينة فلم يعد البدوى يكسب عيشه بالغارة والغزو كما كان قبلا. واصبح لا يطمع قويهم فى الضعيف وتغيرت طرق الحياة بينهم تغيرا محسوسا بعد الاسلام فظهر اثر ذلك كله واضحا فى الشعر الذى استعاد نشاطه فى خلافة عثمان لما نشأ فى عهده من المشاكل مما اضطر كثيرا من الشعراء الى الخوض فى أمور الدولة . ثم جاء بعده على كرم الله وجهه ونشب الخلاف بينه وبين معاوية فنهض فريقان من الشعراء يتناضلان عن الرجلين وشيعتيهما وكانت اشعار هذه الفئة تغلب عليها المسحة الاسلامية لنشوء شعرائها فى حجر الاسلام وانقراض اكثر الشعراء الذين ادركوا الجاهلية وكانت الدوله قد استقرت وايسرت فظهرت اثار ذلك فى الشعر أيضا وتحامى الشعراء اساليب الجاهليين الخشنة وتعابيرهم الجافية فجاء شعرهم ألين واسلس وأكثر تغلغلا الى القلوب لما اكتسبوه من جزالة أسلوب القرآن الكريم وحسن سبكه .

على انه بعد استتباب الامر لمعاوية واستقراره فى الشام رأى أن يستعين بالشعراء فى الغض من بني هاشم وتأييد البيعة ليزيد ابنه . فنشأ الشعر السياسى واشتغل به جماعة من الشعراء انقسموا

شيعا تبعا للاحزاب السياسية التى نجمت بعد قتل على

وسبق الشعر السياسى فى الظهور شعر الغزل والغناء لما استحدث بين العرب من اليسار والترف وسكناهم المدن والقصور وغير ذلك واشتهر فى صدر الاسلام عمر بن ابى ربيعة الذى ولد يوم مات عمر بن الخطاب . بنوع من الغزل جديد لم يسبقه اليه شاعر ، اذ انه جعله شعرا قصصيا بمعناه ناطقا بأشخاصه

وممن نبه ذكره من شعراء بنى امية ثلاثة هم الاخطل والفرزدق وجرير ، وهناك غيرهم لم يبلغوا مبلغهم . وليس خافيا أن شيوع الشعر السياسى والغزل لم يكن تجديدا كاملا للشعر فى معانيه اذ أن هذين الفنين كانا موجودين فى الاصل ولكن بصورة مصغرة عما وصلت اليه فى ذلك العهد ، ولم يحصل فى الشعر تطور جديد غير هذا لاتساع محيط الكلام فى الاغراض القديمة ايضا نظرا لتباين حياة العرب فى الاسلام عنها فى الجاهلية واختلاف عملهم فى العهدين

على أن ما كان من خلاف بين شعراء هذا العهد كان خير ديوان لتاريخ العرب وقاموس حافظ للغتهم

اذ أن الملاحاة الشهيرة التى وقعت بين جرير والفرزدق ودخل فيها كثير من الشعراء جعلتهم جميعا يعرضون فى ثنايا الفخر والهجاء لتاريخ القبائل العربية ومحامدها ومثالبها فى الجاهلية

اولا سلام فصار شعر هذه الطبقة مصدراً من أهم المصادر للرواية

وفي أواخر دولة بنى أمية جهر بعض الشعراء بالدعوة للعباسيين وظهرت لهم شيع ودعاة واحتاج الطامعون فى الملك الى السنة تذب عنهم وتشيد بهم ، فنشط الشعراء لذلك وكانت ابواب القول مفتحة عليهم فخبوا وأوضعوا

ولما ظهرت الدعوة العباسية وغلب الامويون على الخلافة وكان للفرس أثر فى النصر ، وتدعيم الدولة العباسية ، اختلطت الاداب الفارسية بمثيلتها العربية الجاهلية والاسلامية وتكون من ذلك أدب يمت الى عقليات مختلفة ، ويتباين مع الادب الجاهلى والاسلامى فى كثير من اغراضه ، فأثر ذلك فى الشعر تأثيرا واضحا

دخلت على الشعر فى هذا العصر فنون جديدة واستعمل فى اغراض شتى لم تكن معروفة فى الصدر الاول من الاسلام ولا فى عهد الدولة الاموية فقد كثرت المفاخرة والملاحاة بين العجم والعرب وبين المضرية واليمانية ، وبين شيعة العباسيين والطالبيين كما كان الخلاف على اشده بين علماء المذاهب المختلفة والمعتقدات المتباينة

كما استعمل فى السياسة لترجيح كفة على أخرى من المتنازعين على الخلافة أو الحملة على حاكم سابق أو لاحق ، وكانت نبتت طائفة من الشعراء لم تجد لها الا ابواب الحكام والخلفاء

مسترزقا فاستلزم ذلك الاغراق فى المدح الى حد غريب خارج عن حدود الدين والعقل ، واوغل الشعراء فى الهجاء واقذعوا وذكروا المساوىء والعورات وصرحوا بالقبيح من الخلال والخصال . وظهرت فى الشعر اقوال الزنادقة وغرائب المعتقدات وتغزل الشعراء بالمذكر ، وامام هذا النوع والبة بن الحباب وابو نواس.

واغرقوا في المجون والتهتك وذكر الفسوق والفراغ للشهوات وتفصيل اخبارها ، وافتنوا فى وصف الخمر والترغيب في شربها ووصفوا الرياض والقصور ومجالس الانس والطرب ومايتبع ذلك من فنون الترف والنعمة ، وبظهور المتنبى وابى العلاء ظهرت الحكمة فى الشعر كما نظموا فيما ظهر من الفنون والعلوم

وفى هذا العصر عمرت مجالس الادب بالشعراء والكتاب والرواة واصحاب النوادر الظريفة ، وكانت بغداد فى ذلك الحين كعبة الادباء والشعراء لكونها قصبة الملك ومقر الخلافة . وفى كتب الادب كثير من اخبار هذه المجالس والمحافل مما يعدّ ثروة بالغة للأدب العربى وكنزا لاينفد ومواردا لاينضب

وظل اسلوب الشعر فى ذلك العصر على ماكان عليه فى الصدر الاول من المتانة وحسن السبك ورصانة التعابير الى منتصفه ثم أدخلت عليه المحسنات البديعية شيئا فشيئا مع المحافظة على الرقة والسهولة ، الا أن كثرة استعمال المحسنات انغطرت بعض الشعراء

الى ضرورات كانوا فى غنى عنها

ويقول الاستاذ الاسكندرى فى كتابه « الادب فى العصر العباسى » ومن الامور التي استحدثت فى المعانى والخيالات الشعرية

١ ـ ترتيب الافكار واخذ بعضها بحجز بعض بحيث يقل الاقتضاب وشذوذ الانتقال من معنى الى مباين له كما يقع كثيرا فى الشعر القديم

٢ ـ استعمال الخيال الفرضى الوهمى الذى لا يتصور تحققه فى الخارج او فى الذهن مما يستدعيه الغلو والتغلغل فى المدح أو الهجو أو التشبيه

٣ ـ اختراع الخيالات الجميلة التصور فى التشبيه والاستعارة والاوصاف وحسن التعليل

٤ ـ الاستدلال بالحكم والامثال وقواعد الفلسفة وشعائر الدين ونحو ذلك

والامور التي استحدثت فى لفظ الشعر واسلوبه هى : —

١ ـ هجر الالفاظ الغريبة بالتدريج

٢ ـ زيادة دخول الكلمات الاعجمية تظرفا كما فى شعر ابى نواس متبعا في ذلك الاعشى فى الجاهلية وقفاه ابن المعتز وغيره

٣ ـ رقة الاسلوب مع بقاء الجزالة ووضوح المعنى وجلائه

٤ ـ اختراع البديع والاستكثار من انواعه واول من اقدم

على ذلك ابن هرمة وبشار ثم مسلم بن الوليد وابو نواس ثم ابو تمام والبحترى ثم ابن المعتز

والامور التي استحدثت فى الاوازن الشعرية والقافية هى :

١ ـ الاكثار مما لم يستكثر منه العرب كالنظم من المضارع والمقتضب والمجتث والمتدارك والمنهوك من الغروب ومخلع البسيط وغير ذلك

٢ ـ اختراع اوزان ولدها الخليل من عكس دوائر بحوره ونظم منها كثير من المولدين

٣ ـ اختراع اوزان اخرى كبعض اوزان اخترعها مسلم بن الوليد ونظم منها، وكالمواليا وقد اخترع فى رثاء البرامكة باللغة العامية ثم زاد هذا الامر اتفاقا اختراع الفنون السبعة والموشحات في اواخر الدولة العباسية

على أن فى قوله « الفنون السبعة » نظرا فان الشعر يعد من هذه الفنون وهى الموشحات والدوبيت والزجل والمواليا ، والكان كان ، والقوما ،

ومن هذه الفنون ثلاثة معربة أبداً لا لحن فيها وهى الشعر والموشح والدوبيت ، وثلاثة يدخل عليها اللحن وهى الزجل والكان كان والقوما ،

وقيل إن الاصل فى المواليا أن يحتمل الاعراب واللحن

الفصل الثاني

الموشحات

كانت حال اللغة العربية على ما وصفنا فيما تقدم من جهة الالفاظ والتراكيب والاغراض ، وفي اواخر القرن الاول للهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام : فر الى الاندلس « صقر قريش » وهو عبد الرحمن بن معاوية وأسس الدولة الأموية الجديدة هناك فانتقلت الاداب العربية الى هذا القطر عافيها الشعر والكتابة

وتلى ذلك طبعا تغيير هائل في التعبير والخيال والتشبيه وغير ذلك نظرا لاختلاف طبيعة هذا القطر عن مواطن العرب الاصلية فدخل على الشعر كثير من الاخيلة البديعة والتشبيهات الرائعة العجيبة والمبالغات التي تفوق التصور مما تستلزمه طبيعة ذلك المناخ الرائق الجميل .

وازدهرت للشعر في الاندلس سوق ، وراج رواجا عظيما حتى إن جميع طبقات الأمة هناك كانت ترتجله في الاسواق والمجامع ويتخذون منه تسلية وسلوى في خلواتهم واوقات راحتهم واستجمامهم ولشيوع الشعر في سائر الطبقات دهرا طويلا ، وكثرة المتأدبين هناك رأى بعض الشعراء في دولة المروانيين أن يستنبط نوعا

منه يكون أخف تناولا وحفظا ورواية

فأقدم احد شعراء الامير عبدالله بن محمد المروانى ، وهو مقدم ابن معافر الفريرى على اختراع « الموشح » وجعله اشطارا متوازنة يطيل فيها ويقصر كما يشاء من أعاريضها المختلفة

وكان ، مقدم ، شاعرا مبرزا فلما استنبط الموشحات جاراه فيها شعراء عصره وجعلوا ينظمونها على ما وصفنا أسماطا أسماطا يلتزمون فيها وزنا واحدا وقافية متتالية وكانوا يسمون القطعة منها بيتا ، ويشتمل كل بيت على اشطار بحسب الاغراض والمذاهب وفشا هذا النوع الجديد فى الاندلس وتعلق به الأدباء وسائر الشعب وقال فيه المؤرخ المعروف ابو عبدالله بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ، وهو فى غنى عن التعريف

ولما كان مقدم ابن معافر واحمد بن عبدربه . أول من طرق هذا الضرب من النظيم فلم يؤثر عنهما شىء منه ، ولم يرو الحفظة لاحدهما مايمكن أن نثبته فى هذا الكتاب لعدم تحققنا من نسبته اليهما ، والمعروف اجمالا هو ماذكرناه من ان مقدم بن معافر هو أول من نظم الموشحات وتابعه فى ذلك ابن عبد ربه ثم تابعهما الشعراء

اما اول من سارت موشحاته فى الناس وتناقلها الرواة إعجابا بها وطربا لها فهو « عبادة القزاز » من شعراء الطوائف ، وكان خلا

معترفا له بالسبق والتبريز وهو شاعر المعتصم بن صمادح صاحب « المريه » وفيه يقول ابو بكر بن زهير : كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أتم
لاجرم من لحظا قد عشقا قد حرم

وعلى هذا فقد نعتبر « أن عبادة » هو رأس الوشاحين ، وان لم يكن اقدم من خبره ، لكساد موشحات من سبقه وانقطاع روايتها ، مع ذيوع موشحاته وغلبته على سائر معاصريه منهم . واشهر من عرف بقول الموشحات بعد عبادة هذا « ابن ارفع رأسه » شاعر المأمون بن ذي النون صاحب « طليطله » وقد كانت له موشحات في غاية الابداع منها موشحته التي يمدح فيها المأمون ويقول في مطلعها :

العود قد ترنم بأبدع تلحين
وسقت المذانب رياض البساتين

وفيها يقول ايضا

تخطر ولاتسلم عساك المأمون
مروع الكتائب يحيى بن ذي النون

وقد بلغ « ابن ارفع رأسه » من هذا الفن غايته بموشحات

أخرى طويلة لا نرى أن نوردها هنا

وعلى أن كثيرين من شعراء الطوائف اشتغلوا بقول الموشحات ، الا أن احدا منهم لم يبلغ مابلغه من ذكرنا من بعد الصوت ومنصب الصدارة فى اصحاب التواشيح

والمهم فى الموضوع ان هؤلاء جعلوا لهذا الفن قيمة كبرى وحببوا فيه الجماهير ، حتى لهج به الناس جميعا وذاع فى طبقاتهم لسهولة مأخذه وحسن انشاده وقرب معانيه من اذهان الناس.

وجاءت دولة المشين ، وفيها حفلت الاندية والمجتمعات بقالة الموشح وشعرائه ، وظهر جماعة منهم ، بلغوا بالموشحات اقصى مايبلغ اليه من البلاغة وحسن السبك . وحسبك ان زعيم هذه الطائفة وهو « الاعمى الطليطلى » هو الذى انشأ الموشحة المشهورة التى جاء فى اولها قوله :

كيف السبيل الى صبرى وفى المعالم أشجان
والركب فى وسط الفلا بالخرد النواعم قد بان

ولقد روى أن جماعة من اصحاب الموشحات لذلك العهد اجتمعوا فى مجلس باشبيلية وكانوا يعقدون المجتمعات الحافلة يحضرها الرؤساء والسراة واهل الصناعة والناظرين فى الأدب ، للمباراة فى انشاد ماستحدثوه من الموشحات ، فلما تكامل عقدهم تقدم الاعمى الطليطلى فانشد موشحة رائعة قال فى مطلعها

ضاحك عن جمان سافر عن در
ضاق عنه الزمان وحواه صدري

اذا أتى في الصباح أو في الاصيل اضحى يقول
ماللشمـــول، ، لطمت خدي وللشمال
هبت فمـــالي غصن اعتدال ضمه بردي
مما أباد القلوبا يشي لنا مستريبا بالحظه ردنوبا
وبالماه الشنيبا برد غليل صب عليل
لا يستحيل فيه عن عهدي ولا يزال
في كل حال يرجو الوصال وهو في الصد

ولا ننسى أن نذكر في هذه المجموعة من الوشاحين يحيى ابن بقاء وهو الشاعر صاحب الموشحات الجليلة وفيه يقول ابن زهير الوشاح : ماحسدت أحدا على قول الا ابن بقاء حين وقع له قوله:

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يلحق
أطلعه الغرب فأرنا مثله يامشرق

والى هنا نكتفي بهؤلاء عن ذكر بقية أصحاب الموشحات في زمن الطوائف فهم عديدون ، الا أن أكثرهم لم يبلغوا شأو هؤلاء ولم يكن لهم مثل اهميتهم ،

* * *

وجاءت بعدهم دولة الموحدين ، وأدركها ابو بكر بن زهير

الوشاح ، وقد أسن وكبر ، وكان يجلس للوشاحين يحكم بينهم ، ولا عجب فى ذلك فله القدح المعلى بينهم وهو السابق فى حلبتهم ، وكفاه من كل ماقاله تلك الموشحة البديعة التى يقول فيها :

ما المولة من سكره لا يفيق ياله سكران
من غير خمر ماللكئيب المشوق يندب الاوطان
هل تستعاد ايامنا بالخليج ، . وليالينا ،
او نستفاد من النسيم الاريج مسك دارينا
وان يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا
وشجر ظله روح عليه أنيق مورق فينان
والماء يجرى وعائم وغريق من جنى الريحان

ومن الذين اشتهروا فى صدر هذه الدولة أبو الحسن ابن مالك ، وكان وشاحا مبدعا . دخل مرة على ابن زهير وهو كبير فلم يعرفه ، فلما جاء أوان الانشاد أنشد لنفسه :

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم كالنهر فى حلل خضر من البطاح

فتحرك ابن زهير وقال : انت تقول هذا ؟ قال . اختبر . قال ! ومن تكون ؟ فانتسب له فعرفه

وقد كان هذان الشاعران رئيسى أهل الصناعة لذلك العهد ، وسارت موشحاتهما حتى بلغت المشرق وتداولها الرواة والنقلة ،

وظهر لعهدهما جماعة منهم ، محمد بن ابي الفضل بن شرف الدين وابن بهردوس وهو صاحب الموشحة التي يقول فيها .

ياليلة الوصل والسعود بالله عودى

وابن موهل وهو من فحولهم وله :

ما العيد في حلة وطاق وشم طيب

وانما العيد في التلاقي مع الحبيب

وابو اسحق الروبني ، وابن حيون وآخر اسمه « المهر بن الفرس » من أهل غرناطه ، سارت موشحاته وبلغت مبلغا عظيما وله .

لله ماكان من يوم بهيج بنهر حمص على تلك المروج

ثم انعطفنا على فم الخليج ففض مسك الختام

عن عسجد والمدام ورد الاصيل يطوبه كفر الظلام

ومنهم مطرف وهو من أهل غرناطة أيضا وابن جرمون من « مرسية » وهو الذى يقول .

يا هاجرى هل الى الوصال منك سبيل

او هل ترى عن هواك سالى قلب العليل

ومن اهل غرناطة أيضا ، ابو الحسن سهل بن مالك ، الوشاح الرائق النظام وله

ان سيل الصباح في الشرق عاد بحرا بأجم الافق

فتداعت نوادب الورق أترى خافت من الغرق

فبكت سحرة على الورق

وأبو بكر بن الصابونى ، وهو من أرق الوشاحين طرازا. سيما فى قوله .

قسما بالهوى لذى حجر ما لليل المشوق من غير
خمد الصبح ليس يطرد فالليلى فيما أظن غد
صبح ياليل انك الابد أوقطعت غوادم النسر

فنجوم السماء لا تسرى

وله ايضا وهو من بديع ما يروى فى هذا الباب .

ماحال صب ذى ضنى واكتئاب أمرضه ياويلتاه الطبيب
عامله محبوبه باجتناب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفا جفونى النوم لكننى لم أبكه إلا لفقد الخيال
وذا الوصال اليوم قد غرنى كما شاء وساء الوصال
فلست بالائم من صدنى بصورة الحق ولو بالمثال

ومن أشهر الوشاحين الذين ظهروا باشبيلية عندئذ ابو الحسن ابن الفضل الذى فاق أقرانه بموشحته الخالدة

واحسرتا لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى
وأفردت بالرغم لا بالرضى وبت على جمرات الغضى
أعانق بالفكر تلك الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم

ومن الذين عرفهم ذلك العصر بالموشحات العظيمة ، ابن

خلف الجزائرى وابن هزر البجائى

وفى اواخر هذا العهد اشتغل شاعر الاندلس لعصره ، الوزير ابو عبد الله بن الخطيب الكاتب الشاعر الوشاح الاشهر بصناعة التوشيح فافتن فيه افتنانا عظيما وجوده وفاق اقرانه من الشعراء والوشاحين ولا سيما فى موشحته المشهورة الخالدة التي جارى فيها ابى الحسن بن سهل شاعرا شبيلة التي يقول فيها

هل درى ظبى الحما أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو فى نار وضيق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

نقول ان الوزير ابا عبد الله بن الخطيب عارض هذه الموشحة بأخرى اشتهرت فى الاوساط الادبية وتناقلها الرواة وأثبتها المؤرخون وهي معروفة متداولة ونرى ان ذلك لا يمنعنا من اثباتها هنا اتماما للفائدة وهى .

جادك الغيث اذا الغيث هما يازمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس

اذ يقول الدهر أسباب المني تنقل الخطو على ما نرسم
زمرا بين فرادى وثنى مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جال الروض منا فسنا الازهار فيه تبسم
ودوى النعمان عن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس

فكساه الحسن ثوبا معلما يزدهي منه بأبهى ملابس

في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير مسعد الاسر
وطرما فيه من عيب سوى أنه مر كملح البحر
حين لذ النوم منا أو كما هاجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

أي شيء لا مرىء قد خلصا فيكون الروض قد أثر فيه
تنهب الازهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تتقيه
فاذا الماء تناجي والحصى وخلا كل خليل بأخيه
تبعثر الورد غيورا بعد ما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيبا فهما يسرق الدمع بعيني فرس

يا أهيل الحي من وادي الغضا وبقلبي مسكن أنتم به
ضاق من وجدي بكم رحب الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فاعيدوا عهد أنس قد مضى تنقذوا عائذكم من كربه
واتقوا الله واحيوا مغرما يتلاشى نفسا في نفس
حبس القلب عليكم كرما أفترضون خراب الحبس

وبقلبي فيكمو مقترب بأحاديث المني وهو بعيد

قمر أطلع منه المغرب شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن ومذنب في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللما جال في النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى بفؤادي نهبة المفترس

ان يكن جار وخاب الامل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب لمحبوب ذنوب
أمره ممتثل منتثل في ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما لم يراقب في ضعاف الانفس
ينصف المظلوم ممن ظلما ويجازي البر منها والمسي

مالقلبي كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتتبا قوله ان عذابي لشديد
جلب الهم له والوصبا فهو للاشجان في جهد جهيد
لا عج في أضلعي قد أضرما فهي نار في هشيم اليبس
لم تدع من مهجتي الا الدما كبقاء الصبح بعد الغلس

سلمى يانفس في حكم القضا واعمري القلب برجعى ومتاب
واتركي ذكر زمان قد مضى بين عتبى قد تقضت وعتاب
واصرفي القول الى المولى الرضا ملهم التوفيق في أم الكتاب
الكريم المنتمى والمنتمى أسد السرح وبدر المجلس

ينزل النصر عليه مثلما ينزل الوحي بروح القدس

ومن الواضح بعد أن هذا الفن قد تسرب الى المشرق ، واشتغل به بعض الشعراء ، ولكنهم في الواقع لم يبلغوا ما بلغ إخوانهم فى الاندلس وان كان الذين اشتغلوا به من الشعراء المعروفين

فهذا ابن سناء الملك الشاعر المعروف قد أثرت عنه موشحات لطيفة منها هذه المذكورة فيما بعد :

كللى يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلى سوارك منعطف الجدول

ياسما فيك وفى الارض نجوم وما كلما اخفيت نجما أظهرت أنجما

وهى ما تهطل الا بالطلا والدما

فاهطلى على قطوف الكرم كى تمتلى وانقلى الدن طعم الشهد والفوفل

* * *

تتقد كالكوكب الدرى للمرتصد يعتقد فيها المجوسي بما يعتقد

فاتئد يا ساقى الراح بها واعتمد

واملل لى حتى ترانى عنك فى معزل قلل فالراح كالعشق ان يزد يقتل

* * *

لا أليم في شرب صهبا وعشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم

لا أهيم إلا بهذين فقم يا نديم

واجل لى من اكؤس صيرت من فوفل . ألذ لى من نكهة العنبر والمندل

* * *

خذهنى واعطنى كأسى مثل كأس هنى واسقنى على رضاب الفطن الملسن

والهنى بعض ما صيغ من الألسن

لو تلى مدح سناه مع رشا أكحل لذلى على سنا الصهباء والسلسل

* * *

ازهرت ليلة بالوصل مذ اسفرت اصدرت بزورة المحبوب إذ بشرت

أخرت فقلت للظلماء مذ قصرت

طولى ياليلة الوصل ولا تبخلى واسبلى سترك فالمحبوب في منزلى

من ظلم فى دولة الحسن اذا ماحكم فالألم يحول فى باطنه والندم

والقلم يكتب فيه عن لسان الامم

من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل يعزى لالحاظ الرشا الاكحل

* * *

ومما ينسب الى ابن سناء الملك هذه الموشحة الرقيقة :

شمس المحيا أم القمر ام بارق الثغر يابشر

ام البها حفه الخفر بطرز خديك مستطر

قم تباها بما تباها ولا تلاها

فكل احبابنا حضر والعود يشجيك والوتر

* * *

افديك بالسمع والبصر يا اهيفا وصله وطرى

بدر بدا فى دجي الشعر قد لذ فى حبه سهري

اذا تجلى وقد تحلى عليك يجلى

تحار فى وصفه الفكر والعقل والسمع والنظر

فيها حديث عن الطرب وعن سلاف ابنة العنب
اذا سقاها مع الضرب بدر بأفق الجمال رب
فى ظل بان ، على المثاني ، من غير ثانى ،
الا الندامى اذا سكروا والروض والماء والشجر

* * *

(الموالليا)

اما المواليا فقد زعموا أن اول من قاله ، احدى جوارى البرامكة بعد نكبتهم ، وهو من وزن واحد واربع قوافٍ ، وكانت ترثيهم به وتصيح في آخره . « وامواليا » ، فأثر عنها وسموه بعد ذلك « المواليا »

وهو مما يجوز فيه الاعراب واللحن كما قدمنا ، وقد مضى الاوائل على نظمه من أشطار متحدة القافية ، ولكن المتأخرين جعلوا القاعدة فيه ، ادخال شطر آخر من قافية مغايرة قبل الشطر الأخير ، وعلى هذا أكثر مانسمعه من المواليا ، وأما أهل الصعيد ، فيدخلون اشطارا ثلاثه وقد يزيدون عليها قبل الشطر الاخير المتفق فى القافية مع الثلاثه الاول

وقد برع أهل الصعيد فى انشاء هذا النوع براعة محمودة . ودرجوا على أن يلتزموا فيه الجناس والتورية ، وكثيرا من المحسنات ، وهم ينشدونه عفو الخاطر بغير تعمل أو افتعال فيجئ حسنا فى الغالب ، ولجمهورهم ولع خاص بالاستماع اليه . ومن أمثلة ما قيل من المواليا فى الازمنة الخالية قول صفى الدين الحلى الشاعر المعروف .

(سل مقلتيك الكحايل من سلاسلها ومر شفيك من رشف منها سلاسلها
وعارضيك التي مدت سلاسلها كم من أسود ضواري في سلاسلها)

وهو من بحر البسيط ووزنه : مستفعلن فاعل مستفعلن فعلن ،
وعليه سائر ما ينظم من المواليا

ولصفي الدين أيضا في المدح :

أغنت وأفنت كفوفك في الندى والحرب
في القرب والبعد من في شرقها والغرب
وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب
ذا الكرب فرج وهذا قدرمي في الكرب

وله أيضا في هذا المعنى :

من قال جودة كفوفك والحيا مثلين أخطأ قياسه وفي قوله جمع ضدين
ماجدت الا وثغرك مبتسم يازين وذاك ما جاد إلا وهو باكي العين

وله في العتاب :

عني تسليت وأسياف الجفا سليت ومذ توليت عن طرق الوفا وليت
لما تمليت ليا بالعمل مليت إذا تخليت تعرف قدر من خليت

وله أيضا :

ياقلب ان غدروا فاغدر وان خانوا فخن وان هم قسوا فاقسو وان لانوا
فلن وان قربوا فاقرب وان بانوا فبن وكن لي معاهم كيفما كانو

* * *

قد أوعدونا الغضا بانا نخلو في ظل بستان حافف بالثمر نخلو

والطل من فوقنا قد بلنا نخلو ومن كلام الاعادى قط ما نخلو

وقال آخر :

ان ردت تسلم بطول الدهر ما تبرح لا تيأسن ولا تقنط ولا تمرح
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرح وان ضاق صدرك ففكر في الم نشرح

ومنه :

ان كنت عاقل وربك بالتقى برك ادفع اذاك وهات خيرك ودع شرك
وان تمدى حسودك والحسد ضرك ناديه يا أيها الانسان مما غرك

***

ومنه :

طرقت باب الحبا قالت من الطارق فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لى من ثغرها بارق رجعت حيران فى بحر ادمعى غارق

وقال آخر :

ياحادى العيس ازجر بالمطايا زجر وقف على منزل احبابى قبيل الفجر
وصيح في حيهم يا من يريد الاجر ينهض يصلى على ميت قتيل الهجر

ولغيره :

عينى التى كنت أرعاكم بها باتت ترعى النجوم وبالتسهيد اقتاتت
وأسهم البين صابتنى ولا فاتت وسلوتى عظم الله أجركم ماتت

ولآخر :

هويت في قنطرة يا ملاح الحكر غزال يبلى الاسود الضاريه بالفكر

غصن اذا ما انثنى يسبي البنات البكر وان تهلل فا للبدر عندو ذكر

تلك أمثلة من القديم ، ويغلب عليها الميل الى الاعراب مع لحن خفيف يستقيم به الوزن ، وفيما يلي أمثلة من الموالي الحديثة ،في اغراض منوعة ، وكلها طبعا ملحون ، على أن فيها من الفن ما لايخفى على القارئ :

تعالو يا اغنيانا اجمعوا الاموال
وأسسوا دور صناعة وعلموا الاطفال
رقوا الحدادة البرادة الهندسه المنوال
تحيا البلاد م العدم وتعيدو عصر النور
أدى النهوض الحقيق وادى لستقلال

***

الدهر عامل وليه وداعى أنداله
متعوس وخايب رجا ومفسود وأمثاله
عصر المحاسيب وظايفه لجل جهاله
أدى زمان المثل من حكمة الاخيار
بيقولوا يابخت من كان النقيب خاله

***

يا واخد القرد اوعى يخدعك مآله
تحتار فى طبعه وتتعذب بافعاله
حبل الوداد ان وصلته يقطع احباله
تقضى عمرك حليف الفكر والاحزان

ويذهب المال ويبقى القرد على حاله

* * *

ان خفت ما تقول وان قلت الصريح ما تخاف
ما دام شعارك يكون الصدق والانصاف
وليه لسانك يقول شيء والضمير بخلاف
العمر واحد وربك هو رب الناس
يحيا الصريح الشجاع وليسقط الخواف

* * *

الكدب كان عيب زمان والصدق كان محبوب
والبخل طبع الجبان الخادع المرعوب
على العموم تلقى كان ده وده معيوب
صبح البخيل اقتصادى يعنى شيء لازم
والكدب مبدأ سياسى وكلنا عرقوب

* * *

عهدك يبات عين ويصبح يا صديقى غين
وودك ان طال قوى يمكن يكون يومين
حيرت علما الكفوف وبتوع نبين زين
والرمل واهل الفلك والعرافين والناس
لان عهدك مهدد بالخصام والبين

* * *

الازمة مولد وتلقى الكل له ساعى
والشكوى زى الطرق جمله وقطاعى
والذكر فى البؤس عامل للجميع داعي
تسمم صراخ احمدى وشاذلى وبيومى
وانا اللي وحدى بقيت في ازمتى رفاعى

***

فى الوش صاحب حميم وفي الغياب تعبان
يابو براقش بتلبس كل يوم الوان
توب الخداع انكشف لما المخبى بان
وظهرت يانمر انيابك واظفارك
قالوا الدهان ع الوبر لم ينفع الجربان

***

ان كنت فاهم وبتغالط تكون شرير
وان كان غبي حل عنا انت عبد اسير
وان كان بتلعب بديلك تبقى واد خنزير
طول ما أنت طبال وانا زمار لنا دقات
قدامنا افراح ليالى ملاح وجاى كتير

***

المزح يهدى النفوس صوره من التفريح
والنكته محبوبه لو تسلم من التجريح

قالوا البساط احمدى يفنى الكلام د صحيح
وان كان بساطك رفاعى إيه يكون حكمك
إن صح ظنى تكون نكته ضررها صريح

* * *

وقف يرقص حواجبه فى الطريق مرات
ايديه ورجليه وعينه كلهم اشارات
قال السبب فى الجنان ده انه شاف ستات
يا دي الكلام الغريب اندب على الاخلاق
فى كل ناحيه نشوف أحياء في توب أموات

* * *

اعدل مع الناس أساس الملك أصله العدل
واعمل بفضلك تسود بالفضل مش بالاصل
كام من غنى جيب لكنه فقير العقل
واترك الذنب واتغافل عن المكروه
د أفضل الناس ما يشوفشى لنفسه فضل

* * *

القادح اللى انطبع ع الطعن والتسفيه
اوعى تقول ينصلح يوم برضه أصله فيه

تصفى تعاتبه توده تمدحه تواسيه
لابد يوم ينقلب ويزيد عن الاول
الاشتغال بالعباد ده فرض بيأديه

* * *

الحر يستر عيوبه ان زمانه مال
ويميل معاه لجل يقطع ألسن الاندال
ويدق يوم ع الوتد والتانى ع السندال
واصبر لحكم الزمن ربك كريم حنان
وقالوا اعمل بخمسه وحاسب البطال

* * *

في طور سينا ظهر موسى كليم وخليل
وابن البتول الهدايه علم الانجيل
وساكن الغار هدانا بمحكم التنزيل
بدت آيات بينات للزايغ الحيران
وقام لنهج الوصول الفين دليل ودليل

* * *

بمحبتك تستقيم الدنيا ويا الدين
رضاك حياتى وغير عطفك أنالى مين
الناس تهيم فى جميل من التراب والطين
وانا عشقت الجمال السرمدى الدايم
حبك فريضه عليا كون من الشاهدين

هذه أمثلة من المواليا الحديثة فى أغراض شتى اجتماعية وخلقية وتصوفية أوردناها بعد نظائرها من القديم ليتجلى الفارق بين الفنين أمام القارىء وهي من صنع حسين مظلوم

* * *

الدوبيت

وهو من المنظوم المعرب الذى لا لحن فيه ، وليس شائعا كغيره من هذه الفنون وان كان قد اتبع طريقته بعض الشعراء كابن الفارض وابن نباته وابن سناء الملك وغيرهم ومنه يقول التلعفرى :

قلبي مضت لبعدكم راحته ما الصبر على بعادكم عادته
بنتم فرثى لما به شامته لا كان فراقكم ولا ساعته

وقال غيره :

ان جئت ريا الحمى ولاحت نجد فاذكر ولهى وما جناه البعد
قد كنت أقاسى الصد حتى رحلوا يا ليتهم عادوا وعاد الصد

ومنه أيضا لابن الفارض :

أهوى قمرا له المعانى رق من صبح جبينه أضاء الشرق
تدرى بالله ما يقول البرق ما بين ثناياه وبيني فرق

وله ايضا .

روحى لك يازائر الليل فدا يامؤنس وحدتى اذا الليل هدا

ان كان فراقنا مع الصبح بدا لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

وله ايضا .

اهوى رشا كل الاسى لى بعثا مذ عاينه تصبرى مالبثا

ناديت وقد فكرت فى خلقته سبحانك ماخلقت هذا عبثا

وقال غيره .

اهواه مهفهفا ثقيل الردف كالبدر يجل حسنه عن وصف

ما أحسن واو صدغه حين بدت * يارب عسى تكون واو العطف

ولما كان هذا النوع ليس فاشيا على السنة الشعراء فقد اكتفينا بما مر على القارىء منه حتى يتوفر لنا المجال للكلام على غيره من فنون هذه الاداب

الكان كان

وهذا اول الفنون الملحونة أبدا ، وله وزن واحد وقافية واحدة . الا أن الشطر الاول من البيت أطول من الثاني . وقد كان شائع الاستعمال في القرن السابع الهجرى وما بعده الى أواخر الالف السنة الهجرية وما بعدها بقليل ثم قل استعماله على السنة الشعراء . واستعاضوا عنه بانواع أخرى

ومن أمثله ما قيل على طريقه « الكان كان » فسما به قائلوه الى ذروة الفن . قول صفى الدين الحلى .

ياسادة هجرونى وهم نزول بخاطري

لا أوحش الله منكم في سائر الاوقات

اوحشتم العين مني وانكم في خاطري
والقلب في النور منكم والعين في ظلمات
قد انتهى الصبر مني وما بقى في دمعه
هيهات اني أحيي من بعدكم هيهات
لم يبق غير خيالي يلوح كالشبح الخفي
أعد بين الاحيا وأنا مع الاموات
ودعتموني وسرتم والقلب يتبع ركابكم
ايش ضر لوكان جسمي من جملة التبعات
ما مر ما رأيت ضدي يقول لي من فرحته
هنا تشق المرائر وتسكب العبرات
لو لم أسلي روحي وارض نفسي بالمنى
لكان قلبي تقطع من بعدكم حسرات
وقفت لما رحلتم حيران بين اظعانكم
اخفض جناح المذله وأرفع الاصوات
طول الليالي ساهر كني أريد الكيميا
أسبل الدمع نهرا وأصعد الزفرات
ما اطول ليالي جفاكم ساعاتها مثل السنه
وما أقصر ليالي وصلي كأنها ساعات
مالي ارى حسناتي بالسيئات اتبدلت
وسيئات الاعادي اتبدلت حسنات

خالفتموني وعمرى ما زلت اتبع امركم
كذا العبيد تتابع أوامر السادات
اسكت واصبر عنهم ويفعل الله ما يشا
والدهر من عاداته يقلب الحالات

ولغيره فى مثل هذا الغرض :

ما ذقت عمرى جرعه امر من طعم الهوى
الله يصبر قلبى على الذى يهواه
الناس تعلم منى حال الجلاده والقوى
وما اطيق التجلد على اليم جفاه
لى حب مثل الخوخه لو لون وطعم وريحه
ما اكثر مغابن حبيبى وما اقل وفاه
انا عرفتو حظى واحسن اليه ويسئ
لو كنت اعشق ظلى ما كنت قط اراه

وقال آخر فى الوعظ :

يا قاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر
ومن حرارة وعظى قد لانت الاحجار
افنيت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك
ليتك على ذى الحاله تقلع عن الاصرار
تحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشتغل
فكيف يا متخلف تحسب من الحضار

ويحك تنبه اذن وافهم مقالى واستمع
ففى المجالس محاسن تحجب عن الابصار
يحصى دقائق فعلك وغمز لحظك بعله
وكيف تعزب عنه غوامض الاسرار
تلوت قولى ونصحى لمن تدبر واستمع
مافي النصيحة فضيحة كلا ولا انكار

وقال آخر :

شاهدت في الليل طيرى وقمت حتى انصب شركى
ما كل صيد يحصل يفرح الصياد
طيرى الذى كان إلفى لوردت مثله ما حصل
وهو عليا معود وانا عليه معتاد
قد كان شرطى وخلفى لبرج غيري ما عرف
كأننا فى الصحبة جينا على ميعاد
من قبل ما ابصبص له يجى ويدخل قصورى
وانا ارصده فى مطاره خايف عليه ينصاد

القوما

وهذا الفن قريب من الكان كان ، اخترع فى المشرق ، وقد جرى به لسان بعض المكلفين بايقاظ الناس لطعام السحور فى رمضان ، ولا يزال بعضهم فى القاهرة يتغنى بشىء منه فى هذه الايام .

وقيل أن أول من اخترعه « ابن نقطة » الذى كان يتولى ايقاظ الخليفة الناصر للسحور ، والصحيح أنه مخترع من قبله ، وانما نسب اليه ، لأنه أول من اشتهر به ، وكان لابن نقطة هذا ولد ماهر فى صنع « القوما » فلما مات أبوه لم يجد وسيلة يصل بها إلى الخليفة ليعلمه الخبر وليقره في منصب أبيه رئيسا على هذه الطائفة فصبر الى أن حل شهر رمضان وجمع اتباع أبيه وذهب بهم الى مكان قريب يسمعه منه الخليفة وجعل ينشد :

ياسيد السادات لك بالكرم عادات
انا بنى ابن نقطه تعيش أبويا مات

ويقال ان الخليفة اعجب به حين سمعه فدعاه اليه وقربه وأقره فى مكان أبيه وفرض له ضعف ما كان لابيه فى بيت الخلافة

ومما نظمه بعض مشاهير هذه الطائفة ليوقظ به بعض الخلفاء قوله:

لا زال سعدك جديد دائم وجدك سعيد
ولا برحت مهنى بكل صوم وعيد
فى الدهر انت الفريد وفى صفاتك وحيد
والخلق شعر منقح وأنت بيت القصيد
يامن جنابه شديد ولطف رأيه سديد
ومن يلاقى الشدائد بقلب مثل الحديد
لا زلت فى تأييد فى الصوم وفى التعييد
ولا برحت ممتع بكل عام جديد

نحن لذكرك نشيد بقولنا والنشيد
ونبث أوصاف مدحك على خيول البريد
ظلك علينا مديد مافوق جودك مزيد
وكم غمرت بفضلك قريبنا والبعيد
لا زلت فى كل عيد تحظى بمجد سعيد
عمرك طويل وقدرك وافر وظلك مديد

وقد نظم بعض الشعراء من هذا الضرب فى أغراض منوعة فمن ذلك أن صفى الدين الحلى قال :

من كان يهوى البدور ووصل بيض الخدور
بالبيض والصفر يسخو وقد جلس فى الصدور
من حب بيض الخدور ورام لزوم الصدور
يسمح والا فيبقى من بينهم مهدور
كم بين سجف الخدور من عاشق مصدور
يرعى الكواكب لعله يرى جمال البدور
بين الحلل والخدور وجوه مثل البدور
اشراقها في المعاجز وغربها في الصدور
نوائب المقدور مثل الكواكب تدور
من بعد طيب الخواطر يقضى بضيق الصدور

وله أيضا من قطعة طويلة :

حال الهوى محبور يريد جلدا صبور

يصون سره وإلا يبقى من أهل القبور
من كان هواه مستور يحظى برفع الستور
ومن هتك سر حبه يمحى من الدستور
ابذل لبيض النحور اموال مثل البحور
ان ردت تملك وتظفر ولدانهم والحور
قم فابذل المدخور وفى العطا لا تجور
تريد هذى المحبة قلوب مثل الصخور
كم حول تلك الخدور من عاشق معذور
مثل الدواليب تجرى دموعه وتدور
من يركب المحذور هو فى الهوى معذور
يظفر بحبه ويبلغ قصده ويوفى النذور
كن بالهوى مسرور ولا تبيت مغرور
واجعل تراب اعتابهم لاجفان عينك درور
طرق المحبة وعور كم بينها مذعور
من فتك بيض السوالف على سواد الشعور
كم عاشق مذعور من صد حمر الثغور
يغار قلبه ولكن مدامعه ما تفور
كم بينهم يعفور كالظبي آنس نفور
من أهل بدر فديته ايش ما عمل مغفور

الفصل الثالث

الزجل

العيلق

الزجل - كما جاء فى القاموس - اللعب والجلبة والتطريب ، ونبت زاجل صوت فيه الريح ، والتطريب هو الاطراب ، وفي الصحاح أن

الزجل هو الصوت . ولعلهم اقتبسوا لهذا النوع من المنظوم اسم الزجل لأنهم كانوا يطربون لسماعه لسرعة تغلغله الى نفوسهم ، وتأثيره على أسماعهم

أما أول نشأته ، فالمعروف من ذلك أنها كانت في عهد الملثمين من ملوك الأندلس ، ولسنا نعلم على التحقيق أول من أشاع هذه الطريقة فى النظم ، على أن أهل الأندلس كانوا قد أولعوا بالموشحات وافتنوا فيها وشاعت بينهم ، ثم استحدث أهل الامصار منهم ممن أفسد التحضر لغتهم ، فنا منظوما على هذه الطريقة أهملوا فيه قواعد الاعراب ، ولم يلتزموا أصوله وعرفوه « بالزجل » فجاءوا فيه بالغرائب وشغف به الشعب لسهولة فهمه واتساعه للمعانى الدقيقة التى يصعب التعبير عنها بألفاظ عربية مع التقيد بالاعراب ، سيما وقد كانت اللغة لذلك العهد أصابها بعض الوهن لمخالطة أهل الألسن الأجنبية ، والبعد عن البداوة التى كان من شأنها حفظ اللسان العربى المبين من الضعف والوهن

وفى دولة الملثمين هذه نشأ « أبو بكر بن قزمان » فكان السابق فى الميدان ، وهو الذى انتهت اليه مقاليد الرئاسة على جميع الزجالين وفاق من سبقه منهم ، بحيث غطى على ذكرهم ، فلم يحفظ التاريخ لأحدهم شيئا ولذلك يعتبره الجميع رأس الزجالين وشيخهم الأول الذى لا يتطاول الى مكانه أحد منهم

وقيل أنه قال الزجل وهو ابن احد عشر عاما يقرأ القرآن في الكتاب ومنذ ذلك العهد ولع به ودام على انشاده ، فكانت بشائر نبوغه

تطالع سامعيه وهو في هـذه السن الصغيرة ، فلما شب وكبر أبدع أيما إبداع ، و بلغ من هذا الفن مالم يسمع الناس بمثـله لذلك العهد ، وسارت أزجاله فى البدو والحضر وتناقلها الرواة حتى روى له فى بغداد أكثر مما كان يروى له في الأندلس

ومع أن ابن قزمان كان من أهل قرطبة ، فقـد كان يتردد كثيراً على أشبيلية يجالس أدباءها وشعراءها ويناظرهم ، فكم كانت لهم حينذاك فـكاهات طريفة ودعابات فكهة بريئة ، كان يتصدرها هو بحكم زعامتـه وتقدمه عـلى سائر الزجالين ، وكان يلتقى هناك بكثيرين من أئمة هذا الشأن من معاصريه ، أمثال عيسى البليدى وأبى عمرو بن الزاهر الأشبيلى وأبى الحسن المقرى ، وأبي بكر بن مرتين ، ولـكل من هؤلاء مقدرة عجيبة على الانشاد ارتجالا ، حتى كانت مجالسهم وأنديتهم مهبط الكبراء والأدباء وأهل الفنون والظرف ، ولـكننا إذ نذكر هؤلاء نأسف الأسف كله أن لم يصلنا من مأثور قولهم إلا النزر اليسير الذي لايمكن بحال أن يكون هو أحسن ماقالوا ، وان كان من الفن على قـدر كبير ، مثل قول ابن قزمان هذا فى وصف عريش كان جالسا تحته ومعه جماعة من الأدباء فى أشبيلية وأمامهم تمثال أسد من الرخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر مدرجة :

وعريش قد قام على دكان ... بحال رواق

وأسد قـد ابتلع ثعبان ... فى غلظ ساق

وفتح فه بحال انسان ... فيـه الفواق

وانطلق يجرى على الصفاح ولقى الصباح

وهذا الكلام وان لم يكن من جمال الصياغة بالصورة التى تتناسب مع مدارك أهل عصرنا هذا ، إلا أن فيه من دقة التشبيه وروعة التمثيل والوصف شيئا كثيراً يدل على رقة مزاج الناظم وشاعرية روحه ، وبالجملة فقد كان هذا أول العهد بشيوع الزجل في الاندلس وازدهاره ، وكانت حياة ابن قزمان الطويلة التى أربت على التسعين عاما أكبر حافز للشعراء بالانصراف الى الزجل

وقد جاء بعد هؤلاء جماعة كان أشهرهم « مدغيس » وقد انتهت اليه الصناعة في عصره وأوفى على من سبقوه من أهل الفن ، وجاء بعده « ابن جحدر » وكان مبرزاً لا يشق له غبار

ولمدغيس هذا زجل خالد انتهى الينا شئ منه يقول فيه :

لاح الضيا والنجوم حيارى فقم بنا ننزع الكسل
شربت ممزوجا من قراعا أحلى هى عندى من العسل
يا من يلومنى كما تقلد قلدك الله بما تقول
يقول بأن الذنوب مولد وانه يفسد العقول
لارض الحجاز يكون لك ارشد واش ماساقك لذى الفضول
مر أنت للحج والزياره ودعنى فى الشرب منهمل

الخ ماقال ، وقد عارض هذا الزجل فيما بعد رجل من أقدر الزجالين هو محمد بن عبد العظيم ، بزجل جميل يقول فيه :

حل المجون يا أهل الشطاره مذ حلت الشمس بالحمل

جددوا كل يوم خلاعه لا تجعلوا اسمها يمل

وكانت قبل ظهور هـذا الزجال حلبة زاهرة تصـدرها الاديب الكبير والشاعر العظيم أبو الحسن بن مالك ، ثم ظهر الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب الذى مر ذكره فى أخبار الوشاحين وله من زجل فى التصوف

بين طلوع ونزول اختلطت الغزول

ومضى من لم يكن وبقى من لا يزول

ومن أبدع ماروي لهذه العصور قول أبى الحسن سهل بن مالك :

لى دهر بعشق جفونك وسنين وانت لا شفقه ولا قلب يلين

ولعل هذا يشبه ان يكون عصريا على نحو ماينظم زجالو هذه البلاد ونحن اذا ذهبنا نعدد اسماء قلة الزجل فى الاندلس وما أثر من اقوالهم لم نفرغ من ذلك أو نستنفد مجلدات ضخمة

على ان المهم من ذلك ان الزجل بعد ان نشأ فى الاندلس انحدر الى الاقطار الشرقية ونظمه شعراؤها ، فكان فى العراق والشام ومصر ، ولـكن الاخيرة كانت أقرب الى اذاعته ونشره من سائر هذه الاقطار القريبة من البداوة المتمسكة باللغه ولم يمنع وجود الازهر فى البـلاد واشتغال طلبته وعلمائه بعلوم اللغة وتقويم اللسان العربى من وجود الزجالين فى الشعراء فكان فيهـم كثيرون يميلون الى قول الزجل فى مناسبات عديدة كابن سناء الملك وصفى الدين الحلى الذى يقول فى هذا الباب مادحا أحد الـكبراء :

أنت ياقبلة الـكرام زينة المال والبنين

الله يعطيك فوق ذا المقام ويديمك على السنين
أنت شامه بين الانام الله يحرس شمايلك
ويزيدك على الدوام لكي نعيش في فواضلك
ماينطوى ذكر الكرام لما تنشر فواضلك
ونهنيك لكل عام والخلايق تقول آمين
قد بقينا بك فى أمان الله يحييك طول السنين
مارأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعم
كل من جا ليسألك ليس تقول له سوى نعم
أملك أنت أو ملك ضاعف الله لك النعم
أنت والجود كالغمام وسماك فوق ماردين
در غيثك فى انسجام عم كل السائلين
كل ليلة وكل يوم ينشر الذكر والثنا
الله يحييك من خير قوم بالغ القصد والمنى

لعل هذا العصر كان اكثر العصور احتشاداً بشعراء الزجل والمنقطعين لقوله فقد اشتهر فيه جماعة منهم أبو عبد الله خلف بن محمد الغبارى المصرى وكان قيما فى دولة الملك الناصر ، وهو أول مصرى انقطع لقول الزجل ولم يقل غيره من فنون المنظوم ، وسنأتى على ترجمة مفصلة له فى الباب الثانى من الكتاب ،

فاذا تقرر لدي القارئ أنه أول سابق في هذا الميدان ، كان العذر فى عدم بلوغه المرتبة القصوى من الاجادة متجليا ، ولكنه على كل حال لم

يقصر فى هذا الباب بالقياس الى عصره ، وقد نرى من المناسب أن نعرض هنا قطعة من ازجاله الكثيرة التى وصلنا اليها وهي

جاد حبيبي فقلت ذا الحجاج جا يجور أو يزيد
لو عدل عشت بومسرور ويكون الرشيد

* * *

أقلع القلب فى هوى العشاق والدموع في انحدار
وبحور الهوى اذا هاجت ليس لها من قرار
كنت أحسب قلبي معه ريس غرته دى البحار
صحت لما رحلت يامحبوب بحر عشقك يزيد
خفت فيه الغرق فقال افرح من غرق مات شهيد

* * *

انا يوم فى الغبوق بتفرج على شط الغدير
اذ رأيت ع الشط واحد واقف شب صياد صغير
نظرت مقلتى الى منظر ما لحسنه نظير
فقلت ياعين ان غرك الصياد بالجمال المصيد
يوقعك فى فخاخ شباك عشقه وكراكى يصيد

* * *

من نحبه جديد حبيب قلبي يوم صادفته صدف
قلت لين ياقاسى لمن دمعه سال وحاله وقف
دار وقال لى ما الاسم يانحيل قلت اسمي « خلف »

قال علينا يكتب ومن يسمع دا الكلام يستفيد
فى الحقيقه من لا يكون داود ما يلين له الحديد

* * *

لك عوارض فى الخد مرقومه ليس لها من مثال
وجفاك صار « حماق » وباب وصلك « كان وكان » ياغزال
وانت « دوبيت » « موشح » القاما يا عزيز الدلال
ولك الفاظ صارت « مواليا » « بالزجل » والنشيد
وبشعرك متوج القاما وانت بيت القصيد

* * *

من محرم شرابنا وصمنا ونفطر بالثمـــار
حين وجدنا سفرجل البستان يذهب الاصفرار
وغنا الطير الجماد يطرب وكذا الجلنار
فى ربيع حين رأى التمر قاعد فيه تعاليق عقيد
حسب الروض النص من شعبان صار يقيد فيه وقيد

* * *

من لهيب مدمعى جرى الطوفان للهيب ماطفى
وانا هو « الغبارى » فى العشاق ماجرى لى كفى
حين عليا بالصد والهجران والبعاد والجفا
جار حبيبى فقلت ذا الحجاج جا يجور أو يزيد
لو عدل عشت به مسرور ويكون الرشيد

ولا شك أن الغيارى لم ينفرد في هذا العصر بقول الزجل وانما شاركه في ذلك غيره ، وان يكن قد غلب على سواه ، فمن أولئك آخر يدعى « ناصر الغيطى » ، و يغلب على الظن ان هذا لم يكن له من البصر بهذه الفنون ما يجعله من المتقدمين، وان كانت قد وقعت له بعض ازجال جيدة ، لكننا لم نعثر له على ما يكفى لتعرف مبلغ تمكنه من هذا الفن ، واليك هذه القطعة الصغيرة من قوله :

يا أخلايا صحبت انسان أنكر الصحبه وعاداني
وبغضنى حين بقيت مسمى والاله بالفضل أسماني
في بلاد قبلى وأرض الشام يشكرونى سائر اقراني

* * *

والشجيع الشاطر المذكور فى جميع الارض له تذكار
والبلط يوقع لو تعاق مايحصل شئ مع الشطار

* * *

وغير هذين طبعا كان يوجد شعراء يقولون الزجل الا أننا لا نعنى هنا الا بالذين انقطعوا لقوله ولم يخلطوا بينه وبين غيره كما قدمنا .

ومن سنة ٧٠٠ هجرية الى أوائل القرن الهجرى الماضى لم يظهر أحد من الزجالين بالصورة التى ظهر بها الغيارى وأقرانه لعهده ، الى أن ظهر فى قاصية الصعيد « ابن عروس » الناسك المصرى المتصوف والواعظ الأشهر الذى بلغت أقواله سائر أنحاء القطر المصرى فى أوائل القرن الهجرى الماضى وحفظها الناس من مختلف الطبقات وكانوا يتناشدونها

فى مجالس اسمارهم ، وفى غدوهم ورواحهم ، وكانت كلها طبعا في الحكم والامثال والمواعظ وغير ذلك مما ينبغى أن يقوله رجل نسك بعد عصيان وتاب بعد أن أشبع نفسه من شهوات العاجلة .

وفى عصر هذا الرجل كانت الأمية في الديار المصرية منتشرة جدا الا فى نفر قليل من الخاصة الذين لم يكن يعنيهم أن يضبطوا كلام «ابن عروس» فى الدفاتر والكتب ، ولهذا السبب فقد كثير من قوله بل معظمه ، ونحله الناس كثيرا مما لم يقله ، على أنه وصلت الينا مقطعات كثيرة استطعنا أن نحقق نسبتها اليه ، وهى مذكورة عند الكلام عنه فى مكانه من الكتاب مع ترجمة وافية له وتحليل جامع لشخصيته وخصائصه

وفى أوائل حكم محمد على باشا رأس العائلة المالكة ظهر من طلبة العلم فى الازهر زجال بارع فاق أقرانه باستعمال البديع والمحسنات اللفظية في الزجل ليجارى به الشعراء فيما ينظمون ، وهو الفحام ، وهنا بدأ الناس من سائر الطبقات يلتفتون الى هذا الفن ويميلون شطره ، ويستمعون للمجددين فيه بعد أن كانوا قد أهملوه زمنا طويلا ، حتى لم يكونوا يروون منه شيئا ، الا بعض مايسمعونه من كلام ابن عروس المتقدم ذكره

فاذا جاز لنا أن ننسب شيئا من الفضل الى «الفحام» فذلك أنه أول من رفع قدر الزجل فى العهد الحديث من تاريخ مصر ، وجعل له شأنا يذكر فى المجالس وتقبل الناس عليه ، حتى لقد بدأ العلماء يصنعونه وينظمون على طريقته لخفة وقعه فى قلوب الكافة ، وسرعة تداوله بينهم ، بينما كان لا يقرأ الشعر ولا يرويه الا قليل من الطبقة العليا فى الأمة ، وكان

الشعر فى هذا العصر فى أحط مراتبه وادنى درجاته .

ولا بد هنا أن نعترف بأن الزجل بعد وفاة * الفحام * فى عهد حكم سعيد باشا وبعد أن كبر واصابه الوهن وانقطع عن الانشاد ، أدركته فترة ركود وخمول ، فكان يتكلفه بعض العامة وبعض المتعلمين احيانا إلا أنه لم يشتهر أحد بالاجادة فى قوله ، ودامت حاله كذلك الى عهد المغفور له الخديوى اسماعيل ، والد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فؤاد الأول ملك مصر الحالى أطال الله عمره وأقر عينه بولى عهده

الفصل الرابع

كنا نود قبل أن نواصل الكلام عن الزجل منذ عهد المغفور له الخديوى اسماعيل ، أن نتحدث قليلا عن حالة اللغة العربية حينذاك ، من حيث ما دخل عليها من عوامل النهوض والتقدم لولا أن مؤرخى الادب العربى وفوا هذا الموضوع حقه من البيان ، مما يجعل الكلام فيه من قبيل التكرار الذى لا طائل من ورائه ، ولهذا لا نرى بدا من استئناف الحديث عن الزجل وحده ، سيما ونحن نرى أن نوجز في الموضوع حتى لا نضيع وقت القارئ في تفاصيل طويلة ربما عرضنا لها فى الجزء الثانى من الكتاب ان شاء الله تعالى

فى هذا العهد ظهر السيد عبد الله النديم الادريسى الكاتب الشاعر الخطيب الثورى العظيم ، وقد رأينا أن نجعل هذا العهد بدء نهضة عظيمة فى تاريخ الزجل لم يكن لها مثيل فيما سبق من العصور ، ولهذا فقد نعتبرها

النهضة الاولى له ، بما كسب الزجل فيها من أنصار ومريدين ، فان السيد عبد الله النديم حين بدأ يقول الزجل كان الناس على أهبة لأمر عظيم وجاءهم هذا الرجل من الناحية القريبة من نفوسهم فاستمعوا له وأنصتوا وبلغ من قلوبهم مبلغا عظيما ، وكان لأزجاله الثورية فى أشدة الكافة تأثير السحر ، فتهافت الناس الى اجابة دعوته تهافتا عجيبا ، مع أنه كان يدعوهم الى الحرب والقتال .

ولو تأملنا هذا الظرف العصيب الذى أوجدته الثورة العرابية ، وكيف كان الناس يستجيبون لنداء النديم ، علمنا مبلغ تأثيره فى الشعب ، وعرفنا بالتالى الى أية مرتبة من البلاغة ارتفع النديم بالزجل وقوله ، حيث جعله مع الشعر والخطابة احدى وسائله الى تنفير الناس للدفاع عن بيضة الوطن وحماه ، واتخذه أداة للتأثير فى الناس من كافة الطبقات ، ولسنا هنا بسبيل الحديث عن النديم وتعداد مآثره ووصف مقدرته على الارتجال وصوغ الزجل الرائع ، وانما نود أن نصور حالة الزجل منذ خمسين سنة لهذا التاريخ

ولم يكن النديم وحده هو القوة الفعالة فى هذه النهضة الجديدة ، ولكن كان هناك الى جانبه جماعة من الأدباء الكبار ، أخذوا بناصره وعاونوه فى هذه النهضة العظيمة وارتفعوا معه بالزجل الى مرتبة منيفة لم يحلم بها من سبقهم من الزجالين

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بالمرحوم الشيخ حسن الآلاتى ، الذى عرفه أهل حى الخليفة بأزجاله الفكاهية ومفارقاته العجيبة ، وتلك

الندوة التى جمع فيها أهل الآداب والفنون وسماها المضحكخانة العلية وذلك قبل أن يظهر النديم بسنوات وحين كان صاحبه الشيخ رمضان حلاوة فى الاسكندرية يخرج على الناس كل حين بطرائف ازجاله ومساجلاته مع زميله الشيخ حسن اللآلاتى ، وقد كان لهذين الاديبين الكبيرين في ذلك العهد شأن يذكر فى النهضة التى ذكرنا ، وانما نسبنا هذه النهضه الى النديم ، لأنه غطى على ذكر الجميع بالازجال السياسيه التى انتشرت في سائر أنحاء القطر ، بينما كان هذان الشيخان مشغولين بالفكاهه والنوادر ، فلم يتعد ذكرهما الاوساط الأدبية ومجالس الفكاهه والطرب .

وليس من شك في أنهما أديا رسالتهما أحسن الاداء على النحو الذى هيأتهما له مؤهلاتهما واستعدادهما ، فكان الشيخ حسن للمطولات من قصائد الزجل يمزجها بالفكاهة والنكات الرائعة ويدخل فيها الملح والنوادر بينما كان زميله الشيخ رمضان حلاوة مقلا في قصائده ينظمها على أوقات متباعدة من ابيات معدودة الا أنها في غاية الجودة والاتقان . ولقد يعرف الذين أدركوا هذا العصر أنهما كان قريبين من الخاصة حبيبين الى العامة ، لما جمعاه من الأدب والظرف وحسن المخالطة والمعاشرة .

وكان لعهدهما أيضا المرحوم الشيخ « الدرويش » وهو من كبار الزجالين الذين انصرفوا إلى وضع الأغانى ، ذات المعانى الرائقة والنظم الرصين ، وقد وضع من المقطوعات شيئا كثيرا أخذه المطربون فلحنوه وسار فى أوساطهم ، فلم يكونوا ينشدون إلا ما تجود به قريحة الشيخ

الدرويش أوما يأخذونه عن الآلاتي ، ولكليهما أثر خالد فى هذا الباب تود لو اننا استطعنا توجيه الجهود الى احتذاء ماصنعوا واقتفاء مارسموا .

ولسنا نحب أن نغفل فى هذا المقام رجلا آخر أخذ بنصيب من الفن ، وان لم يكن فى مثل مكان هؤلاء ، ذلك هو المرحوم عثمان بك جلال وقد كان موظفا فى الحكومة يجيد بعض اللغات الاجنبية ، فحاول أن ينقل الى العربية بعض آدابها ، فترجم قصصاً «لموليير» الفرنسى وغيره ، وحولها نظما بعضه شعر وبعضه زجل ، واغلبها حكايات على لسان الطير والحيوان ، وهو وان كان وفق في نقل المعانى ، الا أن طريقته فى النظم كانت تتناسب مع لغة عصره ، وهى فى نظرنا أقل نوعا من مستوى معاصريه من أهل الفن ، ولعل ذلك راجع الى احتفاله بالمعانى وحدها ورغبته في نقل الآداب الغربية لى اللغة العربية فى ثوب بسيط يسهل على الكافة تفهمه والاقبال عليه ، على أنه استطاع أن يسدى فى هذه الناحية يدا عظيمة الى قراء العربية ، منذ كان أول طارق لهذا الباب على النحو الذى رسمه لنفسه ، وما من شك أيضا فى أنه كان من زعماء هذه النهضة وأنه كان مقربا من ولى الامر فى البلاد ، فنفعه ذلك التقرب وجعل الناس يلتفتون الى إنتاجه ويقبلون عليه ، فسار كتابه « العيون اليواقظ » وتداولته الايدى وحفظه خلق كثير وانتشر فى الاوساط ، حتى أعيد طبعه عشرات المرات ، وكفى بذلك تقديرا للكتاب وصاحبه

وليس خافيا هنا أن هذه النهضة لم تكن نهضة زعماء فقط ، وانما كان الى جانب هؤلاء جنود تعاونوا معهم ونسجوا على منوالهم ، وساروا من

ورائهم ، فكان من ذلك جو كله زجل وأدب هيأ الظرف لما جاء بعده من نهضات ، وظهر فيه أدباء اتخذوا الزجل مطية لاداء رسالاتهم فى الأدب والأخلاق وغير ذلك

ومما تقدم يتضح أنه مامن أحد ممن ذكرنا فى ذلك العهد الاله فضل على الفن كبير ، واننا ما اتخذنا النديم رأسا للنهضة وأن تأخر عن غيره فى الزمن الا للسبب الذى ذكرناه آنفا ، وهو أنه اتخذ السياسة وسيلة لنشر دعوته فاقبل الناس عليها وتهافتوا على قوله ، اذ أن الحديث فى السياسة كان اهم مايشغل الاذهان في ذلك الوقت ، على نحو مانراه الآن فى الظروف الحاضرة .

* * *

وفي آخر القرن الميلادى الماضى كانت حالة الزجل على ماصورنا فيما سبق من الكلام ، ثم ظهر فى الربع الأخير منه المرحوم الشيخ محمد النجار من علماء الازهر ومدرسيه ، فابتدأت هناك حلقة جديدة توسط عقدها واتخذ منها مكان الصدارة لعلمه وفضله وحدة ذكائه وصراحته فى قالة الحق وقوته في مواجهة الامور ، فالتف حوله جماعة من أهل الفن دانوا له بالطاعة وأقروا له بالرياسة فأنشأ جريدة الارغول وجعل يحررها بمعاونة أحبابه ومريديه ورواد مجالسه الادبية ، التى كانت تقوم على تبادل النكات ومطارحة النوادر والازجال ورواية الاخبار . ذلك فى الوقت الذى كانت « حمارة منيتى » قد افتتحت فيه سوق الصحافة الهزلية بمجهود صاحبها « محمد توفيق » افندى ، والذى نود أن نقرره هنا أن النجار فى عرفنا يصح

أن يكون رأس نهضة ثانية للزجل، لأنه كان كقطب الرحى لجميع الزجالين في ذلك العهد فكان يأوى اليه كبارهم يتدارسون معه الجديد من المعانى والقوافى ، ويعرضون عليه ما انتجوه حديثا من الافكار فيشير عليهم بما يراه صالحا ، فهو لهذا يعد مدرسة جامعة تلقى فيها كبار الزجالين الذين اشتهروا من بعده أصول الفن

على أن جهد النجار لم يقتصر على مدينة القاهرة أو غيرها من عواصم الاقاليم التى كانت تصل اليها جريدة « الارغول » ولكنه كان يراسل فى ذلك العهد زعيما من زعماء الفن فى الصعيد ، هو الشيخ عبد الله « لهلبها » يساجله المواليا الصعيدية العجيبة ، حتى لقد بلغ به تقديره للشيخ «لهلبها» الى حد أن كان يسافر اليه فى المنيا وغيرها من بلاد الصعيد ، ليأخذ عنه بعض المواليا ، فينشرها في جريدته ، وفى هذا منتهى ماتصبو اليه نفس رجل من أهل الفن فى ذلك العصر ، إذ أن النجار كان أبرز شخصيات قائلى الزجل والمواليا .

وكان الى جانب هؤلاء زعيم آخر من زعماء الفن هو المرحوم الشيخ « جاد علوان » وكان متصوفا زاهداً منصرفا عن الملاهى ، وله مجالس خاصة يغشاها أهل الأدب ، وله أزجال قصيرة فيها فن كثير وفيها نقد ودعابة وظرف ، وكان محبوبا من مريديه واتباعه كريما عالماً ، لايدس نفسه على المجالس الأخرى ، بل كان يدع الناس يقبلون على مجالسه من تلقاء أنفسهم ، فيجدون فيها استرواحا ولطفا يستهوى أفئدتهم فإذا شهدت من شهد مجالسه حدثك عن كرم أخلاق الشيخ ولطف

روحه وبدائع حديثه ، شيئا عجبا لا يزال يذكره مريدوه .

وآزر النجار فى نهضته جماعة كثيرون منهم المرحوم « محمد امام العبد » وهو الأديب الشاعر الزجال الذى لا يخفى فضله ولا تنسى بدائعه وكان أحد العبدان الذين ارتفعوا الى مستوى خاصة الأدباء ، وقد اشترك فى مجالس النجار وكان معدوداً من زملائه وأقرانه ، الذين يمكن أن يشتركوا فى مناقشته بخلاف غيره ممن كان يحضر مجالسهم مستمعا فقط ، وقد نستطيع أن نسلك المرحوم « عزت صقر » فى هذه الحلقة الكريمة ، إذ أنه شهدها أيضا وكان ركنا من أركانها .

ونحن وان كنا نروى تاريخا للزجل فقط إلا أنه كان هناك من كبار الشعراء من ضرب فى الزجل بسهم ، وهؤلاء نحب أن نذكرهم فى هذا الكتاب حتى لا نفوت على القراء لذة الاستمتاع بآثارهم ومنهم المرحوم شيخ الشعراء اسماعيل صبرى باشا ، الذى وضع أزجالا للأغانى حازت اعجاب سائر الناس وغناها المطربون ولا يزال بعضها جاريا على ألسنتهم الى الآن ، ومنهم أيضا المرحوم حفنى بك ناصف ، وهو من لا ينكر فضله على العربية كشاعر ، ولم يقتصر قوله فى الزجل على الأغانى كصاحبه وإنما نظمه فى مناسبات كثيرة وأدخل فيه أنواعا من الفكاهة ، وجرت له مساجلات طريفة مع حضرة صاحب السعادة محمد صدقى باشا الوزير الأسبق ، مد الله فى عمره ، وهو يعتبر أيضا من الشعراء المجيدين والأدباء البارزين ، جيد الرواية سريع الحفظ ، لم يمنعه اشتغاله بوظائف الدولة عن الاطلاع والتزود من مناهل العلم والأدب ، فخرج من كل

ذلك بثروة أدبية هائلة ، أهلته للصدارة بين الأدباء وجعلته في مقام الزعامة منهم .

أما الشيخ احمد عاشور ، فليس ممن تتلمذوا للنجار فقط بل وممن زاملوه أخيراً ، وكان رأسا فى عهده مشهوداً له بالاجادة فى نظم الزجل ، والتوفر على صنع الاغانى ، كما كان القوصى أيضا زميلا لهؤلاء ، غير أنه لم يكن ينشى مجالسهم كثيراً ، وكان يقول شعراً وزجلا على طريقة أهل عصره ، من لزوم التاريخ فى الشعر وغيره .

وقد حضر هذه المجالس فى أوائل هذا القرن الميلادى حسين مظلوم رياض والمرحوم خليل نظير وكانا مستمعين كبعض زملائهما ، ويصنعان الزجل أيضا ، إلا أنهما لم يكونا معدودين فى أهل هذه الطبقة .

***

وحوالى سنة ١٩١٢ م ابتدأت نهضة ثالثة لفن الزجل كان العامل الأكبر فيها ماطرأ على حالة البلاد السياسية الداخلية من تغيير . وقد تزعم هذه النهضة المرحوم « عزت صقر » فغذاها بماله ومجهوده وفنه وجمع الزجالين في كنفه وتعاون وإياهم على النهوض بالفن حتى وصل الى حد كبير من حسن الصياغة وجمال الاسلوب .

ونبغ فى هذا التاريخ من زعماء هذه النهضة الذين شاركوا « عزت صقر » فخارها ومجدها المرحوم خليل نظير ، الذى اشتغل بعدة صحف كان يحررها جميعا علاوة على مجلة طوالع الملوك للشيخ محمود الفلكى ، وكان فى زمالته حسين مظلوم وعيسى صبرى .

وظهر مع هؤلاء أيضا الشيخ يونس القاضى وهو معروف بكثرة ما أدخل على الأغانى الحديثة من نظمه ، وكذلك المرحوم حسين الحلبى وكان رغم كبر سنه شاعراً وخطيبا مفوها وزجالا بارعا كثير الانتاج ، وعرف أيضا فى ذلك العهد محمد رفعت المازنى أفندى ، وهو من أصحاب المطولات ، إلا أن له جرأة في التعبير قد لا تتناسب مع قيود العصر الحالى ، وممن عرفوا بالانتاج في سنين الحرب الكبرى المرحوم شعبان عونى وفتحى أفندى محمد

وفي زمن الحرب العالمية ، ظهر فى ميدان الزجل جماعة من الأدباء منهم محمود بيرم التونسى ، ومحمد غالب ، ومحمد عبد النبى ، وبديع خيرى ، ومحمود رمزى نظيم ، ومحمد فهمى يوسف وغيرهم ، وعلى أيدى هؤلاء دخل شئ جديد في فن الزجل ، فجرؤ على قوله كثير من أدباء الشباب وتنوعت أغراض القول لديهم ، حتى كانت الثورة المصرية المعروفة بعد الحرب ، فكانت موسما عاما للنهوض بالآداب جميعا وكان منها الزجل طبعا ، وفى هذه الأثناء اشتغلوا جميعا بنظم الازجال الوطنية في الحماسة والحرية والاستقلال ، وكثرت الاقوال في الصحف والمجلات ، وظهر مجهود الأدباء فى هذه الناحية ظهوراً جليا .

وفى سنة ١٩٢٠ توفى المرحوم خليل نظير ، فكان لموته رنة أسى وأسف فى الأوساط الأدبية وبكاه اخوانه وزملاؤه ، ولم يجد صاحب « جريدة السيف » إلا أن يعهد الى الأستاذ محمود رمزى نظيم بوضع الأزجال فى جريدته بدلا من المرحوم خليل نظير ، وهنا بدأت تتجلى

قدرة الأستاذ على الإنشاء وبزغ نجمه في عالم الزجل ، وصارت له شهرة واسعة ، حتى اختلف مع زميله فى تحرير السيف الاستاذ حسين شفيق المصرى ، فترك الجريدة وانقطع عن التحرير فيها . وأراد الأستاذ شفيق أن لايحرم قراء « السيف » من الأزجال على حكم عادتهم فصنع فيها زجلين أو ثلاثة ثم رأى أن يقطع الطريق الى تحرير السيف على زميله القديم ، فتخير له عاملا وسيما ، فنصبه فى مكانه من « السيف » واختصه بكنية جديدة وجعل يمهد له وزاد عن ذلك فتبناه وضمه الى نفسه ، وصار يصنع الأزجال وينشرها فى جريدة السيف باسم ذلك الشاب ، ثم تركه يقول شيئا وهو يتمهده بالاصلاح الى أن أسف بالزجل ونزل به الى مرتبة ضعيفة .

وفى سبيل الكيد للاستاذ رمزى نظيم ، لم يدع الأستاذ شفيق لنفسه صديقا من هؤلاء الذين تفرقوا بعد أن شهدوا غلاما يزعم لنفسه مزاحمتهم ويخرج على الناس فى كل أسبوع بقطعة مشوهة من الزجل لافن فيها ولا صياغة ، على أننا إذا ألقينا نظرة على كل ما أنتجه هذا الغلام تجسمت لنا جناية الأستاذ حسين شفيق المصرى على هذا الفن باقحامه غلامه عليه وجلبه له طائفة من العوام يظاهرونه ، حتى انحط الزجل على أيدى هذه الجماعة وأصبح في حالة من الفوضى لانظير لها .

ولسنا نحب أن نمارى فى الحقيقة فقد كان جهد الاستاذ شفيق في اظهار هذا الغلام جبارا حتى استطاع أن يخلق له جوا كاذبا من الشهرة فى أوساط العمال وطبقات الدهماء ولاشك فى أن سر هذه الفوضى ما اذاعه

الاستاذ فى الناس من أن لغة الزجل يجب أن تكون العامية الصرفة بحيث لا تدخلها كلمة عربية أبدا وهذا في رأينا قول خاطئ ، اذ أنه بهذه الصفة يكون وسيلة للقضاء على اللغة العربية . بينما نعتقد أن على الزجال القادر واجبا أن يدخل فى الزجل من الالفاظ العربية ماسهل نطقه وخف سماعه حتى يستطيع أن يرتفع بالعامية الى طبقة اعلا من لغة الشارع ويقرب مسافة الخلاف بين اللغة الفصيحة واللغة الدارجة وعلى هذه القاعدة جري الزجالون القدماء وبذلك استطاعوا أن يخدموا لغة الكافة حتى وصلت الى مانرى من الرقى الذى لا نشك فى أنه أحسن بكثير من حالتها منذ عشرين سنة

ولهذا كله نشبت خصومة حارة بين هذا الفريق وفريق الاستاذ رمزى وأصدقائه وزملائه القدماء ، وكان السبب فيها غرام الاستاذ شفيق بالقضاء عليهم جميعا فى سبيل اظهار هذا الغلام ، فلم يأبه بأن يدخل على الفن الدخلاء والجهلة ممن لا ثقافه لهم ولا تجربة ولا بصر بشئ من الأدب ، على نحو ماتجد هذا الغلام الذى أراد أن يجعله زعيما للزجل في مصر ، ولو افتات بهذا على حقوق من سبقه من الاساتذة ، وكان من أثر ذلك أن دخل الغرور على نفس صاحبنا حتى اعتقد أنه يصلح زعيما حقيقة فوضع كتابا فى أصول الفن دعا الزجالين الى التعلم منه ، وهى جرأة تدل على الجهل الفاضح الذى كان دافعا له الى تأسيس رابطة الزجالين التى ضم اليها بعض الناشئين منهم ودعا نفسه رئيسا عليهم فى حين أن كثيرين منهم أقدر على قول الزجل وأشد بصرا به وبنظمه من ذلك الرئيس .

وقد كنا نحب أن نمر على هذه الحوادث مر الكرام الا اننا نجدنا مطالبين مادمنا نضع تاريخا للرجل باثبات الحقائق على مرارتها ، نظرا للفوضى التى فشت فى هذا الوسط بعد أن دخل الى ميدانه كل من هب ودب ، حتى كثرت الاسماء وقل الانتاج ، فنحن اذ نرى الشباب يتهافت على قول الزجل نقول بكل أسف إن الزجل مع هذا قليل فى الاوساط الادبية لأن من يجيدونه من القلة بحيث لا نستطيع أن نزيد في عدهم عن أصابع اليدين

الى هنا نجد أننا قد المممنا بما نريد قوله مع غاية الاختصار والايجاز ونحب بعد هذا أن نبدأ فى تراجم الاعلام الذين ذكرناهم فى هذه الكلمة متوخين الصدق والصراحة اللذين جعلناهما مبدأنا فى وضع هذا الكتاب.

على أنه ظهر فى السنوات الاخيرة زجالون كثيرون منهم المجيدون والمسفون وسنأتى على ذكر ذلك مع تراجمهم فى الجزء الثانى من الكتاب ان شاء الله .